النسب الشريف بين الحظوة الاجتماعية والأطماع المادية:
الشرفاء العلميون أنموذجا

الدكتورة حنان أنجا
أستاذة بالسلك الثانوي التأهيلي
عضوة بمختبر: التراث الثقافي والتنمية.
كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول، وجدة
المغرب

مقدمة:

حظيت الأسر الشريفة بالمغرب بمكانة اجتماعية رفيعة منذ بداية القرن 14م، حيث اعتمدت الدولة المرينية استراتيجية "دعم الشرف" من خلال تقريب الشرفاء والعناية بهم وإدماجهم في سلك الدولة، وبغض النظر عن الأهداف السياسية البحتة لهذه الاستراتيجية، إلا أنها أعادت هذه الفئة إلى الواجهة ومكنتها، زيادة على تحقيق حظوة اجتماعية، من الظفر بمكاسب مادية، إلا أن هذا الوضع خلق تمايزا اجتماعيا جعل عامة الناس تسعى إلى تحسين أوضاعها عن طريق ادعاء الشرف، مما جعل مسألة النسب الشريف تغدو بمثابة مطية يركبها كل طامع في تسلق السلم الاجتماعي، الأمر الذي حتم على سلاطين الدولة العلوية تقنين الاستفادة من هذه المكاسب خاصة خلال القرن 18م.

فكيف خرج مفهوم النسب الشريف من مجاله الديني إلى التوظيف الاجتماعي؟ وما مظاهر الحظوة الاجتماعية للأسر الشريفة وما تجليات أطماعها المادية؟ ثم ماهي نتائج المترتبة عن ذلك؟

I. في مفهوم الشرف والشريف

1- التحديد اللغوي لمفهوم الشرف

تكاد تتفق المعاجم اللغوية العربي على أن الجذر "ش. ر.ف" يحيل على معان مخصوصة لا تخرج عن نطاق الحقل الدلالي للسمو والرفعة والتميز والصفاء وغير هذا. فعلى سبيل المثال لا الحصر يعرف صاحب لسان العرب ابن منظور الشرف بأنه: "الحَسَبُ بالآباء، شَرُفَ يَشْرُفُ شَرَفاً وشُرْفَةً وشَرافةً، فهو شريفٌ، والجمع أَشْرافٌ. والشَّرَفُ والمجْدُ لا يكونانِ إلا بالآباء. ويقال: رجل شريفٌ ورجل ماجدٌ له آباءٌ متقدّمون في الشرَف...يقال: هو شَرَفُ قومه وكَرَمُهم أَي شَرِيفُهُم وكَرِيمهم، واستعمل أَبو إسحق الشَّرَفَ في القرآن فقال: أَشْرَفُ آيةٍ في القرآن آيةُ الكرسي، والمشْرُوفُ: المفضول. وقد شَرَفه وشَرَفَ عليه وشَرَّفَه: جعل له شَرَفاً؛ وكل ما فَضَلَ على شيء، فقد شَرَفَ. وشارَفَه فَشَرَفَه يَشْرُفه: فاقَه في الشرفِ؛ عن ابن جني. وَشَرُفْتُه أَشْرُفه شَرْفاً أَي غَلَبْته بالشرَفِ، فهو مَشْرُوف، وفلان أَشْرَفُ منه. وشارَفْتُ الرجل: فاخرته أَيُّنا أَشْرَفُ.

ومن جانبه يعرف صاحب القاموس المحيط الشرف بأنه: العلو، والمكان العالي، والمجد، ولا يكونان إلا بالآباء، أو علو الحسب.

2- مفهوم الشرف في التداول الاجتماعي

حظي الدين والظواهر الاجتماعية المنبثقة عنه بأهمية خاصة في المجتمع المغربي، الذي عملت ساكنته على استمالة الأشراف من حفدة النبي صلى الله عليه وسلم لسكنى أرضهم، حتى أن بعض الروايات تقول أن أهل سجلماسة اشتروا قدوم "الحسن بن القاسم" إلى أرضهم مقابل وزنه مالا، ورغم افتقار هذه الأخيرة إلى أساس واقعي، إلا أنها تعبر عن حقيقة واقعية تتمثل في أن المجتمع المغربي كان ينظر إلى الشرف بوصفه معادلا للثروة والمال والجاه، فإذا كانت القوة المادية ضرورية لامتلاك الحياة، فإن القوة الرمزية المتمثلة في "الشرف" شرط لازم للسيادة فيها.

ذلك أن الشريف يجسد في شخصه قوة التواصل مع الغيب، حيث مصدر الوحي والشريعة وبداية وجود الموجودات، وهذا ما يجعل الناس تقصده ليس في أمور دينهم فقط، بل في أمور دنياهم أيضا اجتماعية كانت أو سياسية أو اقتصادية.

انطلاقا من هذا يتبين أن النسب الشريف اكتسى في أهمية قصوى في المجتمع المغربي جعلته محط تبجيل وتقدير كبيرين إن لم نقل محط تقديس. ولعل ما يقوم دليلا على هذا – من الناحية التاريخية– أن من بين الدول التي تعاقبت على حكم المغرب كالدولة السعدية والدولة العلوية استندت على عامل الشرف في تأسيسها.

وعامل النسب هذا، جعل أغلب سلاطين الدولة العلوية يولون اهتماما خاصا بكل ما له علاقة بتوقير واحترام الشرفاء ورموزهم كما يذهب إلى ذلك أغلب مؤرخي هذه المرحلة، "ففي عام 1137هـ أمر السلطان بتجديد ضريح مولانا إدريس والزيادة فيه من كل ناحية، والأصول المجاورة له، وهدمها وزيادتها فيه، وشرعوا في حفر أساسه، واستمر البنا والخدمة فيه إلى أن كمل عام 1134 هـ".

ضمن هذا الأفق العام، نجد أن المولى إسماعيل قد اعتمد استراتيجية مشابهة وهي "استراتيجية الاحتواء" التي تمظهرت من خلال منح الشرفاء وشيوخ الزوايا ظهائر التوقير والاحترام، وإعفائهم من الضرائب والتكاليف، بالإضافة إلى منحهم إقطاعات... من هنا عملت –مثلا– مؤسسة "السلطان الشرفاوي" على إنتاج تشكيلة إديولوجية متمحورة حول شخصيه، فهو لم يمزج فقط – على حد تعبير محمد ضريف– تاريخ سلالته بتاريخ المغرب والإسلام، بل وظف كذلك مجموعة من الرموز التي أضحت فاعلة على مستوى الشرعية السياسية الدينية.

ولعل ما ساهم في تعزيز المكانة التي كان يحظى بها الشرفاء لدى العامة، الظرفية الخاصة التي ميزت تاريخ المغرب خلال هذه المرحلة (القرن 18م) من تفش للأمية، وانحصار الثقافة في قلة قليلة، إضافة إلى انتشار الأوبئة والجفاف والمجاعات والهجمات الأجنبية... حيث رأى الناس في هذه المحن عقابا من الله وتشبثوا بالزوايا، وآمنوا بكرامات الأولياء والشرفاء، ورأو فيها بصيص أمل.

من هنا جاءت كرامات الأولياء والتي أفرد لها مؤلفو هذه الفترة قسما مهما من كتاباتهم، معبرة عن مشاكل عصرهم، ومنهم التهامي بن رحمون العلمي في مؤلفه "الأنجم الزاهرة في الذرية الطاهرة"؛ فالكرامات المتعددة التي أصبغها على "أحمد بن قاسم" تعبر عن وضعية الفقر والحاجة التي كانت تعيشها العامة: " وكما يحكى عنه أنه نفذ ما كان مدخرا عنده من معاش الصبيان ...فلما دخل منزله فإذا بصاح عليه ...فخرج وإذا بدواب عليها أعمال من الزرع ...تحط بباب داره.

وهذه الأهمية التي أولاها لكرامات الأولياء اشترك فيها مع باقي معاصريه من العلماء حتى المشهورين منهم بعلمهم الموسوعي مثال "أبو حامد العربي الفاسي" الذي خص قسما كبيرا من كتابه "مرآة المحاسن" لقصص يطغى عليها طابع الخيال واللامنطق يقول": ومنها أن رجلا كان في جيراننا يعرف بمحمد الحصار، وكان له ولد صغير قد أقعد، فأتى به يوما إلى الشيخ، والفقراء إذ ذاك مازالوا يقرؤون حزب الغداة، وبكى بين يديه، وطلب بركته في شفائه، فأقعده عن يساره ساعة، ثم قال له: "قم معافى بإذن الله تعالى". وسار مع أبيه على قدميه، وكان وقتا طابت فيه قلوب الحاضرين، وتجلت فيه الحقيقة لأعين الناظرين، والحمد لله على ذلك حمد الشاكرين.

II. مظاهر الحظوة الاجتماعية للأسر الشريفة وبروز أطماعها المادية: الشرفاء العلميون أنموذجا

1- مظاهر الحظوة الاجتماعية للأسر الشريفة

يعد الشرفاء العلميون من بين الأسر الشريفة التي ظهرت على الواجهة السياسية مع بداية دولة الشرفاء العلويين، حيث عملوا على التواصل مع السلطان الأكبر المولى إسماعيل، وحصلوا على ظهائر توقير منه لهم. وفي تلك الفترة بالذات اتجهت العناية إلى تدوين أخبار الشرفاء العلميين، وتم ذلك بأمر من ملوك الدولة العلوية الشريفة.

إن عناية ملوك المغرب بالشرفاء قديمة، فمن خلال رسالة لأبي القاسم الزياني يبدو أنه كان لشرفاء المغرب على عهد المرابطين مزوار أو نقيب يرجعون إليه، فقد ذكر أبو القاسم الزياني أن النقباء كانوا يأخذون أجورهم من بيت المال، وأضاف: وكذلك كان شأن النقابة أيام لمثونة، والموحدين، وفي مرين، والسعديين، إلى أن مات المنصور منهم، وما كادت دعائم الدولة العلوية الشريفة تتوطد أيام المولى الرشيد حتى بادر السلطان الأعظم مولانا إسماعيل رحمه الله إلى إعادة النظر في الأمر، فوجد أمر الأشراف مختلا، وكادت الرعايا أن تصير كلها أشرافا، كما كان الأشراف يعفون من أداء الرسوم المخزنية، وقد أدى ذلك إلى إعادة النظر في تنظيم نقابات الأشراف، وتم تعيين لجان فرز تميز الشرفاء من المتشرفين، وتوجهت لجنة إلى فاس، ومراكش، ومكناس وغيرها من الحواضر، وكان يرأسها أحد خدام الدولة، ومهمتها اختبار ما بيد الناس من البينات، ووضع قوائم جديدة، توضع نسخ منها ضمن سجلات الدولة الرسمية، وتسلم نسخة أخرى لنقيب الطائفة، وكان لفاس نقيبها، ولمكناس نقيبها، ولمراكش نقيبها، ولجبل العلم نقيبها، «وأكبر النقباء هو الذي بجبل العلم» على ما ذكر الزياني.

وبذلك تبدو الأهمية التي كانت لشرفاء العلم، فصلات هؤلاء بملوك الدولة العلوية الشريفة لم تنقطع حتى إن «جبل العلم» تحول الى حاضرة من حواضر المغرب، وصار موطنا للملوك كما هو معروف، فبأمر من المولى إسماعيل بدأ التأليف في أنساب الشرفاء العلميين، فعلى سبيل المثال كتاب

ابن الصادق «فتح العليم الخبير في تهذيب النسب العلمي بأمر الأمير» جاء ليهذب النسب العلمي، ويستنتج مما سبق أن الأشراف في المغرب ظلوا خلال قرون عديدة أحد المرتكزات الأساسية التي كانت تقوم عليها الدول ويبني عليها الملك، ولذلك كان من الحكمة أن يوليهم السلطان إسماعيل وبعده سيدي محمد بن عبد الله عنايتهما الخاصة. فمن تتبع تاريخ الفترة التي حكم فيها السلطانان العظيمان المولى إسماعيل وسيدي محمد بن عبد الله، يجد أن الشرفاء كانوا في عصريهما يمتلكون قوة معنوية هامة، لها تأثير كبير على العامة، وبذلك، فإنهم كانوا عنصرا ضروريا من عناصر التوازن. ولعل المولى إسماعيل وحفيده سيدي محمد بن عبد الله أرادا بتقريب الشرفاء مواجهة الزوايا التي كانت تشوش على الدولة، بما لها من نفوذ روحي في الوسط الاجتماعي.

ولا شك أن الزوايا الكبرى، مثل الزاوية الناصرية، والزاوية الدلائية، إنما وصلت إلى ما وصلت إليه من نفوذ بسبب ما أدركه شيوخها من العلم والولاية ولذلك، فلم تكن تستمد قوتها من النسب.وهنا يجب أن نذكر أن أقطاب هاتين الزاويتين وشيوخهما كلهم كانوا على صلة حميمة بالشرفاء العلميين، حتى إنك لا تجد واحدا منهم لم يشد الرحال إلى جبل العلم.

فالشرف في المجتمع المغربي كان يخول لصاحبه الوجاهة، وعلى سبيل المثال لا الحصر؛ فقد ذكر السكيرج في مؤلفه مجموعة من الأعيان الذين ساهموا في صناعة الحدث داخل مدينة تطوان، اعتمد في جردهم على معايير محددة من بينها النسب الشريف، قد يعتقد القارئ غير المتمعن "لنزهة الإخوان" أن السكيرج لم يول أهمية لمعيار الشرف أثناء جمع مادة مؤلفه مقارنة بالمعايير الأخرى، غير أن هذا الحكم المبدئي يبدأ في التلاشي بعد القراءة المتأنية في متون التراجم التي خص بها السكيرج أعيانه، ففي أحد تراجمه يذكر ما يأتي :" منهم الفقيه القاضي الحسني العلمي، من أحفاد الشيخ الكبير، الولي الشهير، القطب الكامل، الغيث الهاطل، والغوث الواصل، والنعمة العظمى، السمي الأسمى، مولانا عبد السلام بن مشيش رحمه الله تعالى ورضي عنه، ونفعنا به وبأسلافه".

نلاحظ من المثال أعلاه أن شكل الترجمة يطغى عليه السجع والكلمات المنمقة، أما من حيث المضمون نلتقط إشارات واضحة تختزل الممارسات الاجتماعية التي عرفها المجتمع التطواني في علاقته مع الشرفاء، لم يكتف السكيرج بذكر محددات العلم والمنصب لإثبات مكانة شخصيته، بل استمر في تعريفه ليصل إلى نسبه الطيني الذي تحدده معالم أساسية. فهو بذلك يحاول إقناع قارئه بوجاهة صاحب الترجمة اعتمادا على معيار لا يمكن مناقشته، بحكم المكانة التي حظي بها الشرفاء داخل المجتمع التطوانيخاصة والمغربي عامة.

يبدو واضحا من خلال ما سلف ذكره أهمية الشرفاء داخل البناء الاجتماعي لمدينة تطوان خلال القرنين 18 م و19م، فقد شكل الشرف رهانا أساسيا للعائلات التطوانية قصد كسب وجاهة داخل المجتمع، زاد من أهميته القرب الجغرافي لمدينة تطوان من جبل العلم، منطلق الشرفاء العلميين الذين يعتزون بانتسابهم إلى عبد السلام بن مشيش، أحد أبرز أقطاب الصوفية في المغرب.

2- تجليات الأطماع المادية للأسر الشريفة نموذج "الشرفاء العلميين"

2-1 تطور التأليف حول الأنساب الشريفة بالمغرب

اكتست كتب طبقات الأشراف، أو مدونات عموم الأنساب أهمية قصوى بين غيرها من أصناف مدونات أنساب الأشراف، حيث تجاوزت الاقتصار على فرد معين أو أسرة معينة، وسعت إلى التأريخ لعموم أنسابهم وضبط مختلف فروعها الحسينية والحسنية على السواء، منذ ظهور هذا النوع من التأليف أوائل القرن 9 هـ وأواسط القرن 14م.

إن الملفت للانتباه أن أغلب مدونات الأنساب الشريفة المغربية، قد انصرفت انصرافا كبيرا للتأليف حول الأنساب الشريفة لفاس أكثر من غيرها من المدن، ومن أبرز النسابة الذين كان لهم باع في في هذا النوع من التأليف نجد "محمد بن أبي غالب بن السكاك المكناسي العياني" (ت 818 هـ، 1415م)، الذي ألف كتابا عنونه بـ " نصح ملوك الإسلام بالتعريف بما يجب عليهم من حقوق آل البيت الكرام عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام"، بالإضافة إلى كتاب "الدرر المضمونة في الأنسبة الشريفة المصونة" للعلامة "محمد بن المدني كنون (ت 1302 هـ 1885)، ونورد كذلك مؤلفات عبد السلام بن الطيب القادري، الذي كان علامة نسابة أديبا شاعرا ومؤرخا (ت 1110 هـ / 1698م)، وبرز عل وجه الخصوص في مجال الأنساب ومن بين ماله فيها "العرف العاطر فيمن بفاس من أبناء الشيخ عبد القادر" و"تحفة البينة بنسب بني طاهر وبني الشبيبة" و "مصطلح الإشراق في نسب الشرفاء الواردين من العراق " و " الدارسين فيمن بفاس من أهل النسب الحسني" الذي ألفه سنة 1090 هـ / 1679م، وتم نشره بالمطبعة الحجرية بفاس، في 73 صفحة من الحجم المتوسط سنة 1890/1309م.

وبالنظر إلى غني محتوى هذا المؤلف فإنه شكل بحق بداية التدوين الفعلي لطبقات الأشراف بالمغرب، وصار نموذجا بين يدي من سيؤلفون فيها من بعده، حيث استفادوا من تبويبه، وطريقة تأصيله وتفريعه ومصادره واجتهاداته المتعلقة بالنسب الشريف.

ولا يخفى أن هذا الإقبال الكبير على الاهتمام بعلم الأنساب والتأليف فيه ليقوم دليلا واضحا على الرغبة الجامحة التي كانت توجه المؤلفين –ومن يدعمهم– لإثبات صدقية نسبهم والظهور بمظهر الشرفاء الواجب تقديرهم وإكرامهم.

2-2 التأليف في أنساب الشرفاء العلميين:

كما سلف الذكر، فقد حظي الشرفاء العلميون بمكانة خاصة في بداية حكم الدولة العلوية، هذه الأخيرة عملت على جرد الأسر الشريفة، عبر تكليف من لهم دراية بأنسابها ومنهم العلامة النقيب الأمين سيدي محمد بن الصادق الريسوني، توفي سنة 1236هـ، الذي ألف كتاب "فتح العليم الخبير في تهذيب النسب العلمي بأمر من الأمير، بالإضافة إلى "تأليف في نسب الشرفاء العلميين" لأبي العباس أحمد بن علي القادري الحسني، توفي سنة 1133هـ موافق 1720 م، يوجد بالخزانة العامة بالرباط تحت عدد 771. وأيضا "المآثر الجلية في رجوع نسب أولاد العلوي للشعبة المحمدية الإدريسية الحسنية" لأبي العباس أحمد بن محمد العلوي تكلم فيه عن بعض الأشراف بجبل العلم، وفرغ منه سنة 1366هـ.

أما مؤلف "الأنجم الزاهرة في الذرية الطاهرة" لصاحبهالتهامي بن محمد بن رحمون الحسني العلمي فيعد من أبرز الكتابات التي تبين جليا المطالب المادية أو "حقوق الشرفاء" كما سنوضح بغير قليل من التفصيل.

فمن خلال عنوان المؤلف شبه الكاتب أهل البيت النبوي الشريف بالأنجم كناية على المكانة العالية والمنزلة الرفيعة والمقام المتميز لهم، ودلالة على السمو والرفعة الذين لا يضاهيهما مقام مشابه وذلك استنادا إلى الآية الكريمة "ورفعناك مكانا عليا". وعليه فاختيار المؤلف لهذا اللفظ –كما يبدو– ليس اعتباطيا وإنما يمليه تمثله لمكانة آل البيت، الذي ينحدر منه، وبالتالي فالمبالغة في الإعلاء من هذا المقام هو إعلاء من مقام ذات الكاتب نفسه بالنظر إلى ما كانت تحظى به الأسر الشريفة من تقدير واحترام وحظوة مادية ومعنوية من لدن المجتمع والسلطة الحاكمة.

ووصف الكاتب "الأنجم" ب "الزاهرة" هو تعبير مجازي أراد من خلاله إضفاء لمسة من الجمال والبهاء على آل البيت ليبين أن نجمهم سيبقى مضيئا ساطعا، ونورهم لامعا استنادا للآية الكريمة. "والله متم نوره ولو كره الكافرون"، كما أن فعل الازدهار المرتبط بفصل الربيع يدل على الحياة والتجدد وكلها معان روحية تبرز دور آل البيت في تجديد إيمان الناس وتوجيههم إلى طريق لارتقاء الروحي والمادي.

والذرية المقصودة هي: آل البيت النبوي الشريف الذين حباهم الله حسب مضمون المخطوط، بسبب أصيل لم يختلط بما يشوبه مما هو دخيل، وفي استطاعوا أن يحفظوا نسبهم أبا عن جد فصولا إلى جدهم المصطفى صلى الله عليه وسلم".

والطاهرة: أي النقية، البتول، الطاهرة، المتعففة، المترفعة عن شهوات الدنيا، وكلها معان مستلهمة من لآية الكريمة (ليذهب منكم الرجل أهل البيت ويطهرهم تطهير) صدق الله العظيم، فهذه الطهارة الموسومة لآل البيت، طهارة عصمة تولى الله سبحانه وتعالى حفظها. (الأحزاب، الآية 30).

انطلاقا من مضمون المخطوط استنتجنا أن هناك أسباب ذاتية شخصية دفعت الكاتب إلى تأليف هذا الكتاب وأخرى موضوعية مرتبطة بمحيطه؛ حيث أفصح عن أسباب تأليفه للكتاب في صفحته الأولى بقوله:" هذا وقد طلب مني بعض الأصحاب أن أبين لدي ذرية الرسول صلى الله عله وسلم من ليس فيه ارتياب على ما نص عليه ونقل الكثير من الثقاة والأصحاب من لم تتغير أنساهم عند ثقاة المؤرخين والعصماء". وهو يقصد بالأساس الشرفاء العلميين الحسينيين الذين يعود نسبهم إلى المولى إدريس الأكبر. حيث يقول: "وأخص هذا التأليف أعقاب الخلية فاس الإمام مولانا محمد بن مولانا إدريس الأكبر".

وبالتالي جاء تأليفه له نزولا عند رغبة أصحابه الذين كانوا على دراية باهتمامه بالتأليف في الأنساب الشريفة، وكذا لكونه ينتمي للشرفاء العلميين، وإذا افترضنا أن المؤلف كان يقطن بمنطقة جل العلم بقبيلة بني عروس فلا بد أن أصحابه كذلك كانوا ينتسبون للشرفاء العلميين أيضا، وأن رغبتهم في تبيان عمود نسبهم الشريف كانت متطابقة مع رغبة المؤلف، ولاقت ترحيبا من عنده لتبيان صحة وسلامة نسبهم الشريف إعلاء من شأنهم وتزكية لمكانتهم.

كما أن المؤلف من خلال مجهوده في إثبات نسب الشرفاء العلميين إلى آل البيت النبوي الشريف، وتأكيده المرة تلو الأخرى على ضرورة الوفاء بحقوق آل البيت من التبجيل والتكريم، يبدو أنه يقصد أيضا الحقوق المادية إذ يقول: " وهذه قصيدة متوجة بنحو الثلاثين حديثا دعت إلى القيام بحقوق أهل البيت دعاء حثيثا، وهي من كلام الإمام العالم العلامة المحب العارف الفهامة أبي عبد الله سيدي محمد العربي الفاسي... ، والتي كما ذكرنا سابقا حرص السلاطين العلويون على القيام بها تدعيما لسلطتهم الدينية والسياسية، وساندهم في ذلك اقتناع وإجماع حتى الفئات المثقفة بكراماتهم.

III. نتائج تزايد الأطماع المادية للأسر الشريفة

بالرجوع إلى المرحلة التاريخية التي تم فيها التأليف؛ أي أوائل القرن الثامن عشر، نجد حرص كثير من الناس آنذاك على الانتساب إلى آل البيت، رغبة منهم في تحصيل الامتيازات التي كان يخولها النسب الشريف إلى صاحبه.

ومن المعروف تاريخيا أن طائفة الشرفاء في المغرب ظلوا خلال مدة غير قصيرة يعاملون معاملة خاصة، فلا يؤدون مغرما، ولا يشاركون لا بأموالهم ولا بغير ذلك في القيام بأعباء الدولة، ووظائف المخزن.

وكلما كثر المتشرفون تضررت مصالح الدولة بفقدانها كثيرا من مصادر التموين، ولذلك فقد صدر الأمر في أكثر من مناسبة، للقيام بحصر دقيق للشرفاء، حتى لا يدخل في نطاق الأسر الشريفة من ليس منها، وتكونت لهذه الغاية لجان خاصة تقوم بالإحصاء، وتمزق ما بأيدي الناس من وثائق زائفة تذكر انتسابهم إلى آل البيت.

وكما سبقت الإشارة فإن الناس قد تهافتوا على الانتساب إلى آل البيت، فكثرت الدواوين المتحولة، ورفع ذلك إلى السلطان الأكبر المولى إسماعيل، فصدر عنه الأمر بمراجعة تلك الدواوين، ثم تسرب الخلل إليها بعد موته، فكان أن أصدر السلطان سيدي محمد بن عبد الله أمره إلى خديمه ابن الصادق بوضع ديوان جديد، يقول ابن ريسون: "ومما أمر به مولانا الإمام، أبقاه الله عزا للإسلام، وإرهابا للكفرة اللئام، وأنا له ما يرجوه من نيل المنى في الدنيا وفي دار السلام، وأبقى البركة والملك في عقبه الشريف ما دامت الليالي والأيام، بجاه النبي وآله وصحبه عليه وعليهم السلام، اعتناء منه بالنسب العلمي الطاهر، ومحافظة على مكانته وقدره الباهر، ليعز ويعظم ويجل ويحترم، تقييد جميع فروع الشرفاء العلميين الأدارسة المنتمين للشيخ الشهير العالي القدر الخطير سيدي أبي بكر بنعلي".

ويقول أيضا: "وأذن لنا سيدنا نصره الله بل أمرنا أن نمكنهم من نسخة من هذا الديوان المبارك حرصا منه أدام الله ملكه وأبد في الصالحات ذكره على حفظ نسبآل بيت النبي عليه السلام وصونه من أن يدخل فيه أحد من العوام".

لقد تميز عصر الدولة العلوية بنهضة علمية، ومن جملتها نهضة علوم الأنساب، وخير شاهد على ذلك اهتمام المولى إسماعيل بضبط الأنساب الشريفة عندما تولى الملك فوجد أمر الأشراف فوضى حتى أن أغلب الرعية ادعت النسبة إلى البيت النبوي، من أجل ذلك قام على ساق الجد وأمر أعيان الأشراف وعلماء جيل (العلم) بالبحث في ذلك على ضوء ما بيد الناس من الوثائق والرسوم وبكيفية شرعية، كما أمر بعد التحري بتسجيل من تحقق نسبه وتسجيل من زوره. وغلى هديه سار المولى محمد بن عبد الله رحمه الله.

كما تم إصدار الظهائر السلطانية لإثبات النسب، فقدربط الزياني مسألة الشرف بالوضعية العامة للمخزن، فأثناء مرحلة ضعف المخزن يتزايد عدد المتشرفة بفعل انتشار الفوضى والرشوة ضمن العناصر المكلفة بضبط الشرفاء، وفي مقدمتهم العدول والنقباء كما حدث في فترة تراجع نفوذ دولة السعديين غداة وفاة أحمد المنصور سنة 1603/961م، وكذا خلال الفترة التي دامت ثلاثة عقود بعد وفاة المولى إسماعيل سنة 1727/1085م.

أما خلال مرحلة قوة المخزن، فيلاحظ تراجع عدد المتشرفة بفعل سياسة الضبط والمراقب، إذ تغمر الاستقامة رجال الجهاز الإداري، وتنظم بالمدن والقبائل حملات واسعة النطاق لإحصاء الشرفاء. وقد شكل الظهير السلطاني أداة أساسية اعتمد عليها المخزن لمراقبة الشرفاء. إذ ذكر محمد المسناوي في كتابه "نتيجة التحقيق في بعض أهل الشرف الوثيق"، ما نصه: "والظهائر الملوكية لها في هذا الباب كبير مدخل، ومزيد اعتماد، لدلالتها على ثبوت النسب واشتهاره، حتى انقاد الملوك على أنفة نفوسهم للتسليم له والاذعان، ومعاملة أهله بما يثقل عليهم من التواضع لهم والإحسان، مع ما علم لهم من الفحص عن مثل هذا الشأن، والحرص على ما كان، وكيف كان، فلا يشذ شيء عليهم إلا أوصلهم أهل بساطهم أو غيرهم إليهم" . وعلى غرار الشرفاء في مختلف مناطق المغرب، حظيت العائلات الشريفة في مدينة تطوان بعناية مخزنية من خلال مجموعة من الظهائر السلطانية التي منحتها العديد من الامتيازات، مثل عائلة الريسوني. سنتوقف عند نماذج من ظهائر هذه العائلة:

الظهير الأول: ظهير المولى إسماعيل، مؤرخ في 10 رجب 1713/1125م، يذكر فيه، موجها كلامه إلى قاضيه على الناحية الشريف علي بن عبد الوهاب العلمي، العلاقات الوطيدة بين العائلة الريسونية والملوك المتقدمين عليه، إذ يقول: "فاعلم أن إخوانكم السادات الشرفاء أولاد ابن ريسون هم أحبائنا وأحباب الملوك المتقدمين علينا ".

الظهير الثاني: ظهير المولى إسماعيل، المؤرخ في 16 رجب 1724/1137م، يأمر فيه باحترام أحد المستخدمين في عزيب الشريف محمد ابن الوافي ابن ريسون، إذ يشير أنه بمجرد انتسابه إلى خدمة الشريف الريسوني، يعمه ما يعم الشرفاء الريسونيين، وما يتعلق بهم من أحكام وأعراف.

الظهير الثالث: ظهير مولاي عبد الله، مؤرخ في 17 شعبان 1729/1142م، يذكر فيه أنه اختار الشريف مولاي عبد الرحمان ابن ريسون نقيبا عاما على جميع الشرفاء بالمنطقة الجبلية، وسائر قبائلها.

من خلال النماذج أعلاه، نستخلص أن تجدد الظهائر باستمرار، يحمل في طياته اعترافا وإقرارا من لدن السلاطين بشرف العائلة ووجاهتها وحرصهم الكبير على عملية إثبات النسب من خلال تعيين النقيب الذين توكل إليهم مهمة إدارة الأنساب، فهو يراقب ويستقصي ويتحرى ويسلم شهادات الإثبات، وذاك بناء على الوثائق التي يقدمها الأشخاص الذين يريدون إثبات نسبهم الشريف، وبناء على الوثائق التي يتوفر عليها الشخص ومدى مصداقيتها، يصدر النقيب قراره، إذ يحسم بالإيجاب لصالح البعض، ويرمي البعض الآخر بادعاء الزور.

خاتمة:

صفوة القول إن النسب الشريف في المجتمع المغربي خلال القرن 18م بما أتاح لأصحابه من نفوذ اجتماعي ومكاسب مادية، بدعم من السلطة الحاكمة التي عملت على تقريب هذه الفئة وجعلها دعامة تستمد منها شرعيتها، ساهم فيتعميق التفاوتات الاجتماعية وخلق حالة من التهافت لنيل لقب "الشريف" كرأسمال رمزي تم استثماره في تحقيق مآرب بعيدة كل البعد عن نطاق الدين ومجال الأصل الطاهر.

وفيما يبدو أن هذه الظاهرة ما تزال منتشرة بشكل من الأشكال في المجتمع المغربي المعاصر وإن بأساليب مختلفة وصور مغايرة بالنظر إلى طبيعة التغيرات السياسية والاجتماعية والثقافية التي عرفها مجتمع اليوم.

الهوامش:

[1]– ابن منظور، لسان العرب، تحقيق عامر أحمد حيدر، دار المعارف، مصر، 1981م، (مادة: ش. ر. ف)

[2]– محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تحقيق محمد نعيم العرقسوسي. مؤسسة الرسالة 2005، (مادة: ش. ر. ف)

[3]– عبد السلام حيمر، المغرب: الإسلام والحداثة، منشورات الزمن سلسلة شرفات، العدد 15، النجاح الجديدة، 2005، ص: 39-40

[4]– أبو القاسم الزياني، البستان الظريف في دولة أولاد مولاي الشريف، دراسة وتحقيق رشيد الزاوية، مركز الدراسات والبحوث العلوية، ص: 186

[5]– محمد ظريف، مؤسسة الزوايا بالمغرب، منشورات المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي. الطبعة الأولى. 1992 ص:124

[6]– عبد المجيد قدوري، المغرب وأوربا مسألة التجاوز، المركز الثقافي العربي، 2000. ص:141.

[7]– التهامي بن رحمون، الأنجم الزاهرة في الذرية الطاهرة، مخطوط بالخزانة الحسنية تحت رقم 1484

[8]– التهامي بن رحمون، المصدر نفسه، ص:26

[9]– أبو حامد العربي الفاسي، مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن، منشورات رابطة أبي المحاسن الجد، 2003، ص: 140-150

[10]– مجلة دعوة الحق، علم الأنساب في العصر العلوي: فتح العليم الخبير في تهذيب النسب العلمي بأمر من الأمير (للعلامة النسابة سيدي محمد بن الصادق ريسون)، العدد 143، عن موقع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، www.habous. Gov.ma

[11]– نفسه

[12]–. نفسه

[13]– عبد الرزاق العساوي "أنماط إثبات الوجاهة داخل المجتمع التطواني قبل الحماية" وجاهة الشرفاء نموذجا، الجريدة الإلكترونية "أخبار تطوان" (tetouanews.ma)

[14]– أحمد العراقي، التاليف في الانساب الشريفة بالمغرب، مطبعة انفوبرانت فاس، الطبعة الأولى، 2015، ص:11.

[15]– أحمد العراقي، نفسه، ص:34-35.

[16]– نفسه، ص:38.

[17]– نفسه، ص: 52

[18]– نفسه، ص: 70

[19]–التهامي بن رحمون، نفسه، ص: 9

[20]– محمد ظريف، مؤسسة الزوايا بالمغرب، ص:.3

[21]– التهامي بن محمد بن رحمون، نفسه، ص: 10

[22]– التهامي بن محمد بن رحمون، نفسه، ص:1.

[23]– نفسه، ص:2.

[24]– أغلب الظن انطلاقا من مضمون المخطوط أن من بين أصحاب المؤلف الذين شجعوه على هذه المهمة هو أن نقيب الشرفاء بالمغرب كان ينتمي لشرفاء أهل العلم "أحمد بن أحمد بن عمر" وتقلد هذا منصب خلال فترة حكم المولى إسماعيل تحديدا سنة 1123هـ

[25]– التهامي بن رحمون، الأنجم الزاهرة، ص: 14

[26]– عبد الله العروي، مؤرخو المغرب خلال القرن التاسع عشر، مجلة سيميائيات، العدد 1، يوليوز 2008، ص:36.

[27]– "علم الأنساب في العصر العلوي: فتح العليم الخبير في تهذيب النسب العلمي بأمر من الأمير (للعلامة النسابة سيدي محمد بن الصادق ريسون"، مجلة دعوة الحق، العدد 143 ، عن موقع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (www.habous.gov.ma)

[28]– مجلة دعوة الحق، كتاب فتح العليم الخبير في تهذيب النسب العَلَمي) بأمر السلطان سيدي محمد بن عبد الله ،عبد السلام شقور ،العدد 294 جمادى 1-جمادى 2/ نونبر-دجنبر 1992

[29]– نفسه.

[30]– نفسه.

[31]– عبد الرزاق العساوي، نفسه.

[32]– نفسه.